

الْعَوْنِيَّة من خلال الانتاج الملحي التراثي الجزائري*

الدكتور: بوخالفه عزّي

جامعة الجزائر- الجزائر

سقطت مدينة الجزائر التي كانت تعرف بـ"المحرّوسة" و"المحمية" وسقط معها طموح الجزائريين الذين اشرأبت أعناقهم لأداء دور حضاري كبير في بحيرة الأبيض المتوسط وما بعدها، وظهر هذا الطموح فيما تركه شعراء شعبيون عاصروا السقوط وأرخوا له بطريقتهم، وتحول رثاء المدينة المهالفة إلى بكاء ودم ينز من جروح غائرة، مازال أنين أصحابها صدى يتردد في متاهات التاريخ ويشهد على ذلك السقوط المريع. بيد أن الحالة النفسية الناجمة عن صدمة الانهيار السريع للجزائر لم تتوقف عند حالة الشعراء الشعبيين الجزائريين الذين رصدوا الحادثة وتفاعلوا معها وعبروا عن هول ما حدث في حينه، فقد انطلقت المقاومة لرد الاعتبار للجزائر، حيث عبر بعض هؤلاء الشعراء عن ذلك في مواقف كثيرة، بل كانوا هم من خاضها. و((قد حفظ شعراء الشعب عزة الأمة بوسائلها الثقافية الضعيفة التي لا تتعدى السمع والإلقاء ولم يبق لها من ذكريات التاريخ إلا ما يحيط بها الضباب ويزحف عليها النسيان، وبطولة هؤلاء الشعراء الشعبيين كانت تتلخص في صرختهم الثورية حينما انهارت كل مقاومة وأيام سكت الفقهاء ورجال الدين. هذا وتعد نوعية الإنتاج الملحي غير قابلة لمقاييس النقد المنطقي أو التاريخي، لأن غرضها لم يكن تثقيف الناس ثقافة دقيقة، ولكنها كانت ترمي إلى إثارة الحماس وبعث الأمل في الأمة بكل الوسائل وبالأسطورة على الخصوص لأنها أثبتت في الخيال وأقوى ارتكازا في عواطف شعب رده الاستعمار إلى أسفل درك من الأمة¹). أوردت هذه الفقرة الطويلة لأنني فضلت . من البداية . أن أتحدث عن مسألة الإقناع في التراث الشعبي عامة. على أنه لا يعيننا من كل هذا سوى حالة أخرى ترافق الإخفاق الفردي أو الجماعي حين يقهروا يجد ما يردّ به أو يتحصن به إلا بالفرار إلى ما هو مقدس أو إلى ما يعتقد أنه "مقدس" ولو كان تقديسا أسطوريا . خرافيا، لتحقيق المواءمة النفسية المنشودة في ظل الصدمة والحصار المضروب على الذات المتفاعلة بالموضوع.

الغوثية - من خلال الانتاج الملحمي التراثي الجزائري-

ففي الحالة الأولى المعبرة عن الإخفاق الفردي أو التردّي، وهي لا تعنينا . هاهنا .
لأننا لا نهتم إلا بما هو جماعي أو حالة فردية متحوّلة إلى جماعية، قال ابن مسايب:

الحُرْمُ يا رسول الله	الحرْم يا رسول الله
حَفِيَّانُ جيت عندك قاصد	الحرْم يا رسول الله
خوفي بزُلّي نَتَمَرَمُدْ	يوم الوقوف عند الله
حفيان جيت عندك قاصد	يا صاحب الشفاعة الأَمجد
عاري عليك يا محمد	عَارُ الغلام على مُولاهُ
عاري عليك يا أبا القاسم	صاحب اللواء والخاتم
راني على أفعالي نادم	ما دُرِيتُ بأش نلقى الله
ما تبت ما قرّيت اللازم	إيليس غرني بهواه.

ومعلوم أن سقوط المدن السِّيادية أو "كراسي الملك" مثل طروادة وبغداد والقيروان والجزائر قد أنشأ أدبا خاصا بالحروب هو أدب انهيار المدن التاريخية المقاومة، وربما كان هذا الأدب أكثر دقة وحساسية وتفصيل مما أورده المؤرخون. هذا الواقع أنتج شكلا من أشكال الرثاء لكنه تجاوزه إلى الدعاء بل إلى الاستغاثة أو النجدة، عرف بـ"الغوثية" التي يقول عنها المهدي البوعبدلي رحمه الله في مكانين مختلفين إن بعض "الغوثيات" ما تزال تردّد جماعيا إلى اليوم في بعض زوايا غرب الجزائر باعتبارها دعاء على الظالم ودعاء للمظلوم².

وبلا شك فإن "الغوثية" لا تختص بسقوط المدن عسكريا فقط ولكنها تستثمر الأبعاد الروحية في الحضارة كي تبعثها لتحقيق الدور المشار إليه أعلاه، وتمتد لتشمل المدن وغير المدن ولتعبّر عن حالات جماعية، وحالات فردية: غير المعزولة عن المجتمع بهدف بناء أو إعادة بناء . وفي أسوأ الحالات . ترميم الحاضر بمواد من الماضي غير غريبة عنه.

إطار الغوثية المرجعي:

وعليه فلا مشاحة في أن "الغوثية" شكل من أشكال الخطاب الصوفي المعبر عن وضع شديد التأزم في المجتمع، يقرب بالتقصير والقصور المفضي إلى الخلل المهلك/المحاق، يصيب المجتمع الذي يصبح ضحيته بسبب الغفلة، ولذلك فمضمونها إقرار بالذنب وبالمعصية ويقابله حلول العذاب الذي لا يرفعه إلا تجديد التوبة بنية صادقة مخلصّة تكون مقدّمة لازمة للاستجابة، ففي دعاء المضطرّ المفلس الذي لا نجاة له إلا بالاستغاثة المتحققة بأدواتها المعروفة لدى الصوفية.

الدكتور: بوخالفه عزّي

وأصل "الْعَوْثِيَّة" من "الْعَوْث" وهو الإعانة والنصرة، مستمد من مراتب الصوفية العليا وهو ((القطب الذي يدور من حوله عالم التصوف ويسمى أيضا: ((الغوث" أي العون الأكبر، ولا يزال الشعب يصف أبا مدين بهذا الوصف: الغوث...))³. أما "الغِيث" فهو المطر الكثير النافع. وفي كلامنا نقول: "يَغُوْثُ" يقول: وَأَغُوْثَاهُ، أي الاستصراخ والاستغاثة، يستغيث ويستصرخ ولكنه صراخ النجدة. وربما استعمل معنى "غَيْث" في معنى "غَوْث" لتجاوز الدلالة بينهما، ولعلنا نستشف ذلك المعنى المتداخل السابق في حالة المستغيث اليائس الذي يرجو رحمة ربه سواء أكان اليأس بفعل احتباس المطر/ المسغبة أم بسبب أزمة أخرى كما تفصح عنه الآية القرآنية الكريمة: ((وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ))⁴. فالذي يعيننا. ها هنا. حالة الانفراج بعد القنوط في المعنيين: "الغَوْث" و"الغَيْث" ولنا أن نتصور حالة الانفراج بعد الأزمة بغض النظر عما بين اللفظتين من اختلاف. ف"الغَوْثُ" ينشد في بؤرة القنوط، سواء أكان ماء مطر كريم يُغيث الأرض الظمأى أم استجابة طيبة لدعاء ضعيف يوشك على الغرق. ((وكان الناس يلجأون إلى الصوفية للتخلص من حاكم ظالم، وكذلك لاستجلاب دعائهم، وشفاعتهم وبركاتهم، ووضع حد لموقف بائس، وللشفاء من المرض أو لتفريج الكرب...))⁵. ومن بين هؤلاء الناس نجد الشعراء الشعبيين يستغيثون بالنبي (ص) والصحابة...وبالغوث/ الصوفي وبغيره ممن يعتقدون أن لهم مكانة عند الله بسبب صلاحهم وتقواهم وورعهم وتفانيهم...ولنجتزئ. في البداية. بما قاله الشاعر ولد عمر، عندما هاجم أسطول الدانمارك مدينة الجزائر عام 1770:

يارب ابجاه من اسمه محمد الصادق الامين

احمي مزغنة من الآفات واجعلها مطمأن

ابجاه اللي فيها من أهل العفة الرجال العيان (...)

كل ولي يرمي بمدفع ما يخطي من قابلوا مكان (...)

أولهم سيد الثعالبي هو السيف وصور حرمتها

بحر العلم خليفة النبي صاحب الاسرار والها

بحديثه نفجي كرايبي نوار الحضرة وسرها

غاية مقصدي ومطلبي سلطان أهل السر كلها⁶.

أو ما قاله شاعر مجهول:

ارحمنا يا اله واجلي كل اغيار لا لجأ يا إله غيرك

ارحم الوالدين وَحَنًا والحضار يوم تتقابل الأرواح عندك⁷.

الْعَوْثِيَّة - من خلال الانتاج الملحي التراثي الجزائري-

وربما قادنا التحليل الأنثروبولوجي السريع إلى تلمس ظاهرة الأسماء ومعانيها في الواقع المجتمعي الجزائري، مع وجود مَنْ يعرف باسم: "الْعَوْثِي" وبخاصة في غرب الجزائر، فمعنى الاسم الجزائري مقصود لذاته ولغيره، ويعبر عن الواقع، عكس حال أسماء أبنائنا اليوم التي هي ظاهرة انتشرت بنسب متفاوتة مع المسلسلات العربية: مبارك ومباركة، للذكر والأنثى: يحمل معنى البركة، أو حلول البركة في مكان تنشده فيه البركة من خلال ترديد اسم مبارك أو مباركة. ولخضر وخضراء: يحيل إلى واقع الجوع: المسغبة والمجاعة بسبب احتباس الماء أو قلته أو عدم كفايته: تغير الواقع وربط الاسم: لخضر/ خضراء بالاختصار المرغوب فيه المؤدي إلى الخير والبركة.. واسم "الْعَوْثِي" في بعض جهات الوطن يصور حالة حقيقية أو مفترضة لواقع متأزم يلج ويدعو إلى التغيير، وكأن تكرار "الْعَوْثِي" في المكان المتأزم دعوة صريحة لحل الأزمة أو أن الاسم ببساطة طقس لا بد من ممارسته وتكراره على وجه ما لتحقيق الانسجام مع الواقع، أو هو تعويذة تردّد وتنشد لإيقاف التأزم أو القضاء عليه، ولأن الاسم "كلمة" وهي فعل متجسد وحركة فاعلة فلا غرابة. والحالة هذه. أن تكون أسماؤنا القديمة أكثر تعبيراً. ولو ضمينا. عن واقع عقدي وفكري يدفع بالحركة إلى السرعة وإلى الأمام بوتيرة متناقصة تضمن التواءم النفسي والاجتماعي. والاسم القديم يعبر عن حالة الناس المتداول بينهم...

تنشأ "الْعَوْثِيَّة" في واقع متأزم، أو أن هذا الواقع هو الذي أنشأها، وتأتي لتصفه أولاً ثم لتتجاوزه ثانياً. بيد أن حالة من العسر شديدة تتطاول وتمتد وتطفو بين الوصف والتجاوز، هي المعاناة الحقيقية المفضية إلى النشأة بسبب خلل ما أدى إلى اضطراب مجتمعي أو فردي، وهذا هو إطارها المرجعي المنشئ الذي تخاطبه خطاب استهجان لأنه يمثل المدّس المتعالي ويشير إليه! أو هو إطارها المستقبلي، غير أن ما بين أيدينا من نماذج لا يعبر إلا عما هو إطار منشئ ومخاطب في نفس الوقت. أما التجاوز المقصود فيكون لطرح بديل للواقع المتأزم الذي يعاني الناس وطأته ويتألمون منه بسبب ما حل بهم، ويدفعهم إلى الانعطاف إلى الماضي أو الاعتكاف به لتحقيق المواءمة النفسية والاجتماعية للوصول إلى التوازن النفسي المنشود، كما تقدم، وهو تجاوز جاهز: الرجوع إلى أصل الدين بالتوبة وطلب المغفرة والإخلاص... كما عبر عنه الشاعر الشعبي الشيخ عبد القادر، في قصيد يصف فيها حال الجزائر والجزائريين بعد سقوط مدينة الجزائر في يد الفرنسيين:

توبوا استغفروا للمولا⁸. هذا آخر الزمان أدركنا
فيه المحايين وكل بلا منا لفوق ما كان أهنأ⁹.

الدكتور: بوخالفه عزّي

((ألف هذه الأغنية الشاعر سي عبد القادر الذي كان يتلقى تعليمه بإحدى زوايا مدينة الجزائر، روى فيها كل مشاهداته من أفعال الفرنسيين في مدينة الجزائر عند احتلالها، عاد بعدها إلى مدينته مازونة، تألم كثيرا من هول هذه الأحداث وظل حزينا إلى أن وافاه أجله (...)) توالى أعمال الشعراء الشعبيين الجزائريين منذ سقوط بلدهم بأيدينا، فلا تجد مدينة سقطت بأيدينا، ولا معركة خاضها الجزائريون ضدنا، ولا حدثا أساسيا وقع، إلا وغناه الشعراء الشعبيون العرب. وسقوط مدينة الجزائر أذهل المسلمين وترك في العرب أثارا وألما وحسرة وندما، وأصبح ذلك الألم قدرا محتوما يواجهونه، تعلنه زفاتهم ومعاناتهم...))¹⁰.

وقد تكون "الْعَوْنِيَّة" تعبيراً عن تشبث بأمل واه ينتج عن تصادم شخصيتين متناقضتين، أو عن حضارتين، فهي نتيجة حالة التأزم القصوى تقتحم عالم السكون فتحوله إلى فوضى مطلقة تؤلم المستغيث الذي لا يقوى على مدافعتها أو مواجهتها أو التكيف معها إلا بالاستعانة بالقوة القادرة وحدها على إخراجه إلى السكون والطمأنينة القديمة المحققة للنشوى التي افتقدها. هذه القوة هي الله سبحانه وتعالى، بيد أن المستغيث ينوع أحيانا أو يلجأ إلى ما يعتقد أنه "مقدّس" أو إلى مَنْ يتوجس فيهم "القداسة" انطلاقاً من قناعة تفيد الإقرار بنجسه ضمنياً والاعتراف بالتقصير في حدود الله أو في مخالفتها، معلناً توبته وندمه أو داعياً غيره إليها، ومن ثم فلا يكون للاستغاثة أية استجابة بسبب تدنيسه أو محاولة تدنيسه المقدس: تدنيس النفس بالمعاصي التي تستوجب غضب الله وسخطه الذي إذا حل بقوم، حلت عليهم اللعنة وخسروا أعمالهم، فيلجأ إلى من يعتقد أنه: طاهر، نقي، مقدس، مستجاب الدعاء مثل: "لَقْقِير" "البُوْهالي" "الدَّرْويش" "الولي"... وكل من يعتقد فيه الصلاح. أي الطهارة الروحية كي يحظى بالاستجابة المخْلِصة من الآلام، مادام يعتقد أنه مدنّس...

ولعل هذا الطرح يدفعنا إلى مواجهة حادة بين ما هو ما هو "مقدّس" وما هو "مدنّس" لدى الناس على اعتبار أن "الْعَوْنِيَّة" تصف واقعا متأزماً مدنّساً وتنشد غيره، في نفس الوقت الذي تحيلنا فيه إلى واقع مثالي فاضل سابق، وتسعى إلى رسم نموذج لواقع مناقض، واقع آمن مقدس منشود بالهروب إلى العبادة وإتباع ((...طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة))¹¹. تكفيرا عن الذنب الموجب للتأزم كما يراه المستغيث. وهذا مظهر من مظاهر المسألة في حالة التأزم الداخلي الفردي الذي ينفلت أو ينقلب إلى حالة من التأزم

الْعَوْنِيَّة - من خلال الانتاج الملحي التراثي الجزائري-

الاجتماعي في كثير من الحالات حيث يقتضي الأمر . إلى جانب ما تقدم . البحث عن مواصفات البطل الصوفي الذي يبطل فعل الواقع المتأزم أو يزيله . وعليه فالإطار المرجعي المتأزم/ الآتي يبحث في الماضي المشرق/ غير المتأزم عن بطل منقذ ويسعى إلى استعارة إطار مرجعي آخر قديم متجانس حضاريا معه في الأبعاد التاريخية والروحية ومساراتها المتوازية، وهو بذلك يبحث في تجاويف ذاكرة التاريخ عن بطل يجمع شتات صفاته من مواصفات أبطال الأمة التاريخيين الذين غيروا مجرى التاريخ... أما المستغيث فهو عاجز عن أي شيء سوى الأمل وكلمات تستعطف الماضي وتبعثه لأنه عاجز . ويمكن أن يكون دور "الْعَوْنِيَّة" دورا تخديريا ينتظر المعجزة ويجسد حالة الاستسلام ! غير أن دور "الْعَوْنِيَّة" في غالب الأحيان . وبناء على ما لدينا من نماذج . هو دور تحريضي، يدعو إلى الثورة على الواقع ومواجهته لتغييره ((وهذا النوع مشهور في الأدب العربي، وهو على أنواع، فمنهم من يستغيث بالصحابة والصالحين/ ومنهم من يستغيث بسور القرآن، ومنهم من يجمع بين الكل، ثم تختتم بذكر الضيم الذي يشتكي منه المستغيث والدعاء للانتقام من الظالم أو لتفريج الكرب...))¹² ((...وقد كثر هذا النوع في العهد التركي ثم في العهد الفرنسي يبدو المستغيث تارة بالأنبياء أو الصحابة والصالحين أو سور القرآن ومنهم من يجمع بين الكل ثم يذكر ما يشكو من الضيم ويختتم بالدعاء على ظالمه...))¹³ . وذكر في الهامش: ((من جملة هذه الاستغاثات في العهد الفرنسي منظومة مصطفى بن التهامي وزير الأمير عبد القادر، نظمها عندما كان سجيناً صحبة الأمير عبد القادر بقصر أمبواز وهي تربو على 400 بيت))¹⁴ .

وعندما نظم الشعراء الشعبيون الجزائريون "الْعَوْنِيَّة" كانوا يؤرخون ويتألمون لمآل الجزائر، وما لحق بمواطنهم و... بعد سقوط مدينة الجزائر في يد الفرنسيين. يقول الشاعر الشيخ عبد القادر:

بالحمد نبُتدا ذا أَلْقَصَّة ونعيدها	استغفروا وتوبوا يا مسلمين
نوصي على صلاة احمد لا تنساوها	تفك من القصايص ونصّب الوازنين
هو يفك من جهنّم واهوالها	سيد الرجال شفيع المذنبين
سيد الانس والجنّ وسيد اسيادها	محمد التهامي مصباح الدين
صلوا عليه قد الدنيا بتمامها	صلّوا عليه ألف يا مذنّبين
كثروا بالصلاة على الامجد طه	يوم الخميس والجمعة والاثنين
في ليلة القبر كيف يموت يصيبها	اينال النعائم وحوارات العين
الفايزين راهم نالوا باسبابها	بصلاة سيد الامة جد الحسنين

الدكتور: بوخالفه عزّي

صلوا عليه قد الدنيا وامحائها ما دمننا نشوفوا واحنا حين

بيت

توبوا استغفروا للمولا	هذا اخر الزمان ادركننا
فيه المحامين وكل بلا	منا لفوق ما كان اهنا
التعب لطم كل قبيلنا	ما جا الاّ زمان الفتنا
من عاش حالته لا حالا	والّي مات ذاك تهنا
هذا الكلام للعقلا	والعارفين هذا المعنا
أمن ذرى يا فضلا	حسراه وينها مزغنا
سلطانت المدون الجملا	ولا غير في يد اعدانا

ولات للنصارى شينين الدين

مطلع

الايام يا اخواني تبديل ساعاتها	والدهر ينقلب ويولي في الجين
بعد كان سنجاك البهجة ووجاقها	الاجناس تخافها في البر وبحرين
امين راد ربي ووفى ميجالها	واعطاوها اهل الله الصالحين

راني على الجزائريا ناس حزين¹⁵.

البداية الاستهلاكية لهذه "الْعَوْنِيَّة" تلح على تجديد العهد، وربط الصلة بالماضي والعودة إلى طريق الله، لأن الخروج منها يؤدي إلى حلول العذاب، وإلى غضب الله وغضب أهل الله/ الصالحين لكثرة الموبقات والمنكرات فتخلّى عنها "الصالحون" أي حمائها فكل مدينة في عهدة وحماية ولي يرعاها ويدود عنها ما دامت ملتزمة بحدود الله، بل إن "الصالحين" أحيانا يبيعون المدينة بعد غضبهم على أهلها !:

امين راد ربي ووفى ميجالها واعطاوها اهل الله الصالحين¹⁶.

ويقال بأن سبب احتلال الأسبان مدينة وهران تحقق بعد غضب "سيدي الهواري" على أهلها الذين قتلوا ابنه، وبعد دعاء "سيدي أحمد بن يوسف الملياني" عليها¹⁷. وبيع الأولياء المدن للنصارى ظاهرة عقدية خرافية منتشرة في المغرب العربي: فقد باع الولي ((سيدي أبي العباس السبتي (...)) وكان أهل سبتة يحرقونه وباعها للصبنيول يعني أعطاها لهم...))¹⁸ وفي تلك البداية تأنيب ضمني للمخاطبين ودعوة لمحاسبة النفس، فحصول ((تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله))¹⁹.

الْعَوْنِيَّة - من خلال الانتاج الملحي التراثي الجزائري-

اتخذت الجزائر وفي ميجالها زلّ الكلام عنها يا مسلمين (...)

زلّ الكلام وذرق عنّا وافترقت الفزوع وراحت

ماشى هاكذا ظنّينا في المومنين هذا فايث

تحسبنا على مزغنّا خلفا كثير يبقى ميت

في لا حفير والجبانّا شبان للبلا تتفاوت

اعلى اصوارها تتفانّا يبقى الدم غير مقلّت

لاكن بالحنن حزنّا من بعد عزها وانهانت

حتى اليهود فرحوا لينا ونساهم الكلاب تزغرت (...)

الصبر يا امة محمد لا يامها هذا ما قضى رب العالمين.²⁰

ما أقسى وأمر هذا الواقع الذي تنهار فيه أمة، ويعبر عنه بـ "وفي ميجالها" جاء أجلبها و"زلّ الكلام عنها" انتهى أمرها، ما أقسى أن يتنكر اليهود فجأة وينتصروا للفرنسيين، ما أقسى أن تذهب هيبة الجزائر القديمة، ولم تعد تخشاها الأمم كما في السابق:

يا سامعين هذا القصة خليوا ذا الامر يصرف

حسراه وين ذيك المرسى وغنايم القهاوي ومُلف

أقْطَرْ بهم رصّى بسناجق الحرير ترفرف

قرصان داخله للمرسى قداش من يسير مكثف

للكافرين كانت بخصّة الاجناس قاع فيها تحلف

منها الجنوس ولات نسا من جا يطل يمشي زاعف

ابغال يا بني للدرسة وآلي رجيل منها خايف

شاعوا خبارها في الايام الفايّتين.²¹

وفي سَوْرَة الألم يجري الشاعر مقارنة بين جزائر آخر يوم ممتد إلى الورا مشيدا بماضيها التّالّد، وأول يوم من أيام الاستعمار الفرنسي البغيض:

من درى على الجزائر وعلى تحصانها وعلى وجاقها نزلت فيه العين

حسراه وين دار السلطان وناسها صدّوا وجاوا لها ناس اخرين (...)

حسراه على رجال البهجة اعطاوا مايّة وانغلبوا (...)

والمومنين ضجت ضجة حتى الصغار منها شابوا

نسوان بايتين هُراجة هذا البلا ربّي جابه.²²

الدكتور: بوخالفه عزّي

ثم تنبثق لحظة الأمل المنبجس أو عودة نور نجم أفل، أو تشبث غريق
يستنشق الهواء بين لحظة وأخرى في محاولة يائسة للنجاة فيقول:

يا سامع الدعا في الدّجا الاسلام بالدعا يطّلبوا

تتهى العباد وتزول قاع احزانها ويزول ذا الظلم على المسلمين²³.
ثم يعود متحسرا يائسا يقهره الواقع:

حسراه على المفاته وعلى قضائها علّمات البلاد مصابح الدين
حسراه على الجوامع وعلى خطباتها ومنابر الرخام إلى مرفوعين
حسراه على الصوامع وعلى اذانها وعلى ادراسها ثم الحزّابين
حسراه على المساجد غلقت بيبانها ضحاوا اليوم يا سيدي منسيين
حسراه وين تحفاتها وين ديارها وين البيوت وغُرف المخصيين
ولات غير وطنية ومشات ارسامها ماذا يغير المنكر ذا اللعين
سكنوا الروم فيها وتبدل حالها شهدت غير ذوك إلى منجوسين
دار الفُشائرية هدّوا حيطانها قلعوا الرخام ودراجز منقوشين
اشبايك الحديد إلى في طيقانها نجروهم الخوارج عديان الدين
ثاني بلانصة القصارية سمّاوها بعد الكتب فيها والسّقارين
الجامع العظيم إلى كان قدّامها هدّوه غير نقمة في المسلمين²⁴.

ثم تأتي الاستغاثة بالنبي (ص) وبالكتب المنزلة وقارئها ومن يتلوها وبالساجدين
الراكعين، بعد الظلم الذي حل بالبلد لرفع الضيم:

مطلع

يا خالق العباد نتوسل بطه ربّ جيب ليها سلطان حنين
ويعود في السراية هو سلطانها يحكم بالشرع والحق المبين
بجاه الكتب وجميع إلى يقرأوها والساجدين لله والراكعين
من بعد ألف يا الفاهمين تورختها والواو ياك تكونوا فاطنين
يا غافر الذنوب اغفر لي قالها واغفر ذنوب عبد القادر مسكين
ماذا من المعاصي والسيئة دارها تعفو عليه يا رب العالمين
راني على الجزاير يا ناس حزين²⁵.

ونفس المعاناة صورها الشاعر عبد السلام بن أحمد البقال:

يا بلاد الجير يحفظك من لا يخفى يا مزغنة ايسلكك عظيم الشأن
يا بحر العلام فيها من أهل الصفا من بلاد الشيخ الثعالبي عبد الرحمان

الْعَوْنِيَّة - من خلال الانتاج الملحمي التراثي الجزائري-

فيك من أهل الورد وأهل الوضيافا يقرأو الخليل والرسالة والقرآن²⁶.

عضراوية وأدمية وضريفا ومثلها ليس توجد في ربع أركان

بحق المصطفى الطاهر

أرفع منها الفساد وامحي كل أوزار	نبغي في خيرها تكثر
أنت المعين يا العزيز الجبار	كانت فرجا لكل زاير
نضرا للعاشقين عن ساير لقطار	أم البلدان والعساكر
لبست تاج العقيق مكلل بحجار	وجوامع بالبلاد تعمّر
بأهل العلم ريت وأوراد والاذكار	ما شاء الله على الجزائر
تظهر لك من بعيد كالمرجا نوار	استرها يا كريم وأجير
بحق صاحب لواء الصفا	يا ربي واحفظ الجزائر
بحق صاحب اللواء الصافه	مول البراق والحمامة والبرهان
بحق الواقفين فوق جبل عرفا	بحق الصائمين شهر رمضان
بحق الطايفين بالمشرفا	لله توجد وعبد الرحمان
عدنا نتعاير مع بنو جيفا	تلفنا ديننا وتبعنا الشيطان ²⁷ .

بحق اسم المنوار

والحلوي والمغيث والشيخ الجبار	بجاه أبي بكر وحيدر
وعثمان والسيد عمر	لرقبا يا وليد جعفر
غيث الاسلام فكها من ذا الكفار	ذهبوا الاسود والقصور
القط هميم يختلج من ظل الفار	الباز مع العقاب قصر
ريت الهاما الهميم والخدام احبار	لجت الخيل في المشاور
سبقوهم الحمير وعمات الابصار	اليهودي عاد بطل غازر
الجيد والشريف ما يسواو دينار	لا قاضي لا إمام طاهر
من كثر الذنب والنميمة والمنكار	يا ربي واحفظ الجزائر
فالبخاري حديث عن زين الصيفا	الهجرة خير من الحج مع الأركان
في الرسالة أقوال لابن عرفة	الهجرة واجبة على من هو قيطان
قال الرسول للصحاب الخلفاء	الزحافين يهجرؤا فوق العميان
من لا يهجر يشوف بعينه يشفا	شافوه الصالحين يتمشى عريان
القلب هميم والجوارح خوافا	واعضايا هارين من صهد النيران

القصة قصة الجزائر

الدكتور: بوخالفه عزّي

معانها أسرار بلاد الجيدار اللي من كان بطل غازر

سبتوا السماء وقتلوا فيه العار ابن البقال لاش يعشر

زار الغوثي شعيب وسعد شاوانهار أهفا ملها من العناصر²⁸.

وعليه فقد تكون "الْعَوْثِيَّة" قصائد مناجاة شعرية في خلوة أو في عزلة، وقد تكون مقاطع من قصائد دأب الناس على ترديدها، معبرة عن معاناة فردية وفي أغلب الحالات جماعية، كما أنها تشير في الغالب إلى السبب الذي أوجب استمرارها في الزمن فهي من جهة تؤرخ للواقعة كما تقدم في "راني على الجزائري ناس حزين" كما أنها تظل متشبثة بالدين، تنطلق منه لتعود إليه من جهة ثانية. ف((كلما دب اليأس في نفوس الناس وعندما لا تتحقق أمانهم حيث يعودون إلى التأوه، والتأسف، والتحسر والبكاء والفرار إلى الدين عساهم يجدون فيه عزائهم ومنقذهم مما هم فيه من ضياع وتمزق وغربة))²⁹. وانتشر هذا النوع بالشكل المتقدم على مساحات جغرافية شاسعة.

وقد تكون القصيدة رثاء، لكنها سرعان ما تتحول إلى "عَوْثِيَّة" مشبعة لاستشعار بالظلم والفتنة واستقباحا له. فقد ذكر الشاعر الشعبي الشيخ الشارف بن التكوك في منظومته التي رثى فيها شيخه ابن القندوز الذي كان من مريدي الشيخ المعزوز أي عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة القادرية، وهو من ضحايا الباي حسن الذي أمر بقتله. قال:

ارحم شيخي بالقندوز مريد الشيخ المعزوز³⁰.

عبد القادر به نفوز عند رجال اللزما³¹.

بالقندوز المزهّد في وسط الطلبة عابد

لابد في الذكر يمجد يخدم ربي بالنية

وبعد ذكر خصال شيخه وصفاته، شرع في الدعاء على الظالم وهو هنا الباي

حسن:

يا ربي عذّب حسن فركت بيت الله تعيان

والطلبة قعدت تنهان وافترقوا في بكريا

افترقوا في تاحمدا³². شدّوا من به العمدة

ما تضني كيفو ولدا اسم النبي سيد أرقية

ثم كانوا مجموعين عمارة للمساكين

يكفل من لا عنده وين يكسي آلي يجيوه أعرايا

ذا حكم الله قدّر عالم بكل خفية

الْعَوْنِيَّة - من خلال الانتاج الملحمي التراثي الجزائري-

إلى أن يضيف معرضا بالباي حسن:

ما رفقوشي بالنفوس يخدموا غير النحوس

ما قتلوا من رؤس من ساداتي الصوفية

قتلوا شيخي الرباني ما هوشي من أهل الفاني

يجعلوا ما ينساني في الآخرة والدنيا

وهنا وبعد عرض كل الأسباب يختم بشحنة قوية يدفع بها هي ما تضمنه

دعاؤه، فاستغاث بسور القرآن العظيم، فقال:

بالنصرتبت يدا ازرع علينا الاعداء

ما يعرفوش الردا اصحاب الدنيا الفانية

وبسورة الاخلاص الفالق مع الخناس

امنعي من الوسواس فلا يقرب ليا

انتهى في القرآن مائة ظاهر تعيان

اربعة عشريا رحمان تجعلهم سور عليا³³.

دعاء على الظالم بأربع عشرة ومائة سورة من القرآن، هي القرآن كله، ولا

يكون الدعاء إلا على الطغاة الجبارين الذين عاثوا في الأرض فسادا. ((وقد كتب لهذه

المرثية الخلود حيث أن طلبه ذلك المعهد كانوا ينشدونها ليالي الجمعة إلى زماننا هذا))³⁴.

وهو ما نقف عليه لدى شاعر آخر يتألم مما آلت إليه أوضاع الجزائر، يستغيث بالله،

ويعاتب "علي" و"جعفر" على تأخرهما عن نصرة الجزائر، ثم يتوسل بـ"أبي بكر" و"عمر"

وعلي وفاطمة الزهراء (ض) ثم يتوسل بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالكعبة والمدينة

المنورة وبالقرآن، وبكل ما في البر والبحر. يقول:

يوم أحرك الفرنسيس على السلطان لا طلا يا علي وجعفر

أنهانت بعد عزها حرة الاوطان حزني حزني على الجزائر

بعد العيش العزيز ولات في الاحزان بايت سلطانها امحير

الاسلام امنكدين وازهاو الخزيان تشاهد كرغلان وحضر

ولات هلعا ناسها من بعد الأمان كاللي ما جاوها أمساير

يا خالق الأرض والسماء عظيم الشأن بعد العصري أتخيل يسر

بحرمت بوبكر وعمر وعثمان وعلي زوج البتول حيدر

انظر الاسلام يا العالي بجاه المصطفى أنبيننا

ابجاه ابراهيم الخليلي وبجاه البيت والمدينة

الدكتور: بوخالفه عزّي

وبالقرآن جبت فالي يتوسل به من اتمنا
ورجال البركل والي ورجال البحر ليك جينا
لا تبخلناش يا القادر

كل هذا للشعور بالذنب والارتباط بشخص عزيزة عند الله ليقبل الدعاء/
الاستغاثة، كل هذا لتحقيق:

انصردين النبي على دين الخزيان واترك ديوان قوم الاصفر (...)
فرج يا خالقي بجودك براني طغا بخدو
بجاه المصطفى حبيبك وبجاه التابعين بعده
حقروا أمخازن الوكاوك صبارين للقضاء يودوا
طراشين البلا ادكادك ضهدين الجيوش بعده³⁵.

كما استغاث بقريش قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم وبعبقة بن نافع الفهري،
وبمن حضروا قعة أو صلح الحديبية، وبالعشرة المبشرين بالجنة، وألح على الخلفاء
الراشدين:

الدنيا غدارة هوات بالاولين وين قريش ووين الشجيع عقبة
وين العشرة الابرار المقربين بوبكر وعمر وأهل الحديبية
وينه عثمان ومن قبيل نصرورا الدين وينه حيدر أمسلك الصعيبية
البعد اينسي والزمان غلاب³⁶

ثم الاستغاث بالصحاب، وطلبة القرآن وسور القرآن ثم أولياء الله وعلي:

الحال حالك يا قهار يا الله يا عالم الأسرار
وهب جيش الكفار للزمهرية ضربت الأبرار
نمثلهم كيف اصحاب المختار نشعر عنهم يا فاهم (...)
والطلبة اللي تقرا الاسوار غيئهم يا عالي الأقدار
يبخسوا ويجروا في حصرا حبك داخل الاكباد
ربي بلغني المراد بركة سيدي أهل الجهاد
أولياء الله مع الكرماء يوسف يا بوزيان
هو الي يفض الامحان كل يوم الننده بلسان
الي ساكن في قلبه الايمان يحضر فيها يا فهم (...)
الابطل يا راعي السرحان حيدرة نقال السلسال
نبغيك تجيني عجلة واتشوف ماذا جرى بي

الْغَوْثِيَّة - من خلال الانتاج الملحمي التراثي الجزائري-

كل يوم انخمم محتار حتى جاني ذاك البشار (...)
لا تشفي فيه العديان يمنعوا من هذه الداهية³⁷ .
واستغاث بأصحاب الطرق مثل "بوفيرين" و "أحمد التيجاني":
. بوفيرين:

بوقبرين تكون معانا سلطنا من قوم اعدانا
راها طالت هذه الاهانة انده جدك يا غوث الله
من الاغبان القلوب مليانة انده يا سلاك الوحلة
صلوا على رسول الله

يا سيدي رايس الاولياء بوقبرين ضياء عينيا
ننده لك رجال وولية يا سيدي قطب الجلالة
طالت هذه الميزيريا اطفئها هذه الشعالة³⁸ .
. التيجاني:

خير الحريا سيد أحمد جيتك دخيل روف عليّ وارعاني
بالهاشي الشريف الامجد راني قصدت حرمك بالك تنساني (...)
انا خشيت لا نترمد النفس والهوى والشيطان غواني
لله ولك جيت سند الهاشي المفضل موالى الفرقاني (...)
أنا دخيل بحرمة طه ضاوي الجبين تروف عني في أمرك رهين
نغرا يا تيجاني³⁹ .
واستغيث بما كان يعرف بالبيوت الكبيرة:

يا ركايز عرشي وستار الشرقية ومن بعد ما صدوا الوطن راح وكفر
بيوت المجبور أهلهم غوثية ونلقى السوق عليهم دايمًا عامر⁴⁰ .
وكانت "الغوثية" كما تقدم تصور الواقع وتتجاوزه، وهي هنا غوثية ضمنية:
جانب محنة للمساكين تعول يعطوا أربع مدود فرينة للعيال⁴¹
درك الخلقة تموت بالسعلة والسل واد النغزة والقرع بسقامه طال
والكروسة من السبيطار تنقل لا يرى من طهم واحد محال
عادوا يستهزاو بنا ذا المنعل ظلوا عنهم العرب جملة هبال
في دولة الرسول كانوا في الذل وترهبوا من حرمة العشرة الأبطال
دار الوقت عادت الأمة في الذل غابوا عنا قوم عثمان وعلال
قال البارح زاد عند فلان طفل دار الخوجة نقمته والا ما زال

الدكتور: بوخالفه عزّي

وقت ان يكبر للنصارى يتجول آخر يخدم عسكري وآخر حمال
تسائل فرنسه مثال النمل وادها سوق السوردي ما كان نوال
ايلا طول حكمهم عنا تجهل واني خايف يقعدوا الاسلام قلال⁴²
اخذلهم يا الله بجاه الأمجد واسترنا من كيد ذا القوم العديان⁴³
يا ربي غيث المسلمين من شر الكفر والكفرة
لا تصرف في أمة أحمد مشركين ولا تسخر ناس للنصرة
بجاه الي قراو آيات الستين وبالهادي صاحب البشارة⁴⁴
يا حسراه على املاعب في الاغوار مشلية منا ومشلية منيه⁴⁵
وعبر ابن سهلة عن حالة أخرى:

ربي بجاه تاج الرسالة أنت الحنين لينا تنظر
رانا نجرعوا في الدفلة ونراوا بالعيان المنكر
الجوع والعرا والقلّة والناس بالطبول تنقمر⁴⁶

و"الغوثيّة" كشكل أدبي متميز تسمو بروح صاحبها، أو بروح المعبر عنه أو عنهم، نتيجة إقراره بالخطأ الفردي أو الجماعي المؤدي إلى التآزم القاتل، وتحيل قارئها إلى "الأزمنة المقدسة" و"الأمكنة المقدسة" وجاء تقديسها بحلول البركة الإلهية بها. ويكون التقديس أحيانا دينيا، وأحيانا أخرى تقديسا أسطوريا، وهذا مرتبط بمقدار وقوة وقدرة الشخصية والنشوة الإيمانية للمستغيث ومستواه وخبرته في التعامل مع "الغوثيات" في جماعة أو كفرد.

وإذا عدنا إلى ما بدأنا به فإنني أقول بأن الإقناع في الثقافة الشعبية لا يتحقق بوساطة العقل أو المنطق، ولكنه يعتمد الإيحاء والإقناع النفسي، بالنظر إلى طبيعة المادة الشعبية نفسها، وإلى مستوى المتلقين الذين يتداولون تراثا ثقافيا شعبيا يتراوح نسبيا. بين النزوع إلى الواقع والإغراق في الخرافية، بالنظر أيضا إلى أنه يتضمن تنفا وشذرات أو "تيما" أو "موتيفات" تمثل جانبا من الرواسب الثقافية يمكن ردّها إلى فضاءات فكرية وثقافية وعقدية للعشائر البدائية الموغلة في القدم، والتي تبدو جزئيات "بريئة" عائمة في النص الشفهي، وإلى عناصر ثقافية أخرى تلونت بلون ديني على الرغم من "وثنيتهما" ولكنها تلبست بلباس الدين وراحت تتلأأ عبر الأزمنة، واختفت معالمها الأساسية المشيرة إلى "وثنيتهما" وأصابعها ما يعرف بـ"التراكم الثقافي" لتجد لها مكانا في حياتنا بعد تخلصها من "وثنيتهما" لتصبح اليوم. في حياتنا. سمة أساسية فارقة، وكأنها

الْعَوْنِيَّة - من خلال الانتاج الملحمي التراثي الجزائري-

"حفريّة ثقافية" تأبى الوقوف عند زمنها المنشيء أو المحتضن لها، وكأنها . وهي تتخبط في كياننا . تصرخ فينا وتحيلنا إلى "زمن المنشأ" و"مكان المنشأ".
الأزمنة والأمكنة والشخوص المقدسة:

تلك الإحالة تتضمن أحيانا إشارة إلى أحداث فارقة في تاريخ الأمة أحيطت بهالة من التقديس، وبها ارتقى النص الشعبي المحتفي بها إلى مستوى التقديس الأسطوري، لأنه . ببساطة . أقحم عناصر خارقة/ غيبية في النص لا صلة لها بـ"الحادثة التاريخية الفارقة" وتبرز هذه الإضافة النوعية هالة تقديس أخرى أو صبغة تقديسية يتزاح فيها التاريخ الحقيقي المقدس نسبيا بالتاريخ الأسطوري الموهوم، وربما تناحرت عناصر من التاريخ المدوّن وعناصر من التاريخ الشفهي الأسطوري، بحيث أفضى ذلك إلى تفكيك التاريخ بحيث تزحزح بعض العناصر الأسطورية بعض عناصر التاريخ في "الحادثة الفارقة" ومن ثم تصبح الذهنية الشعبية أكثر قابلية للعناصر الأسطورية من العناصر التاريخية ! بحيث تعرض "الحادثة" التاريخية الحقيقة مجردة من "تاريخيتها" مشبعة بالأسطورية ومرتدية ثوبا آخر غريبا وتقدم للشرائع الاجتماعية التائهة التواقة إلى "شحنة تاريخية . ثقافية" تضيء بها واقعها المؤلم وتتماس مع جوانب شتى من حياتها وربما شكل ذلك . بالنسبة إليها . زادا معنويا تقاتت به في ليالي الظلم والتعسف والقهر، وهي اللحظات التي تنتج مثل هذه الحالات المأساوية في حياة الأمة حتى ولو كان هذه الزاد الثقافي الذي عبرنا عنه بـ"الشحنة التاريخية . الثقافية . الأسطورية" زادا مشبعا بالخرافة...

فالراوي أو الشاعر الشعبي أو المنشد و...وهو يحدث ويبلغ عن نفسه أو عن غيره أو عنهما معا أو عن واقعه يجد دائما استجابة، ويجد من يشاركه فيما يعبر عنه في موقف ما، هو . في النهاية . "موقف مقيد" تحكمه الضوابط الاجتماعية وتراكماتها وروافدها. ولنأخذ صورة "المدّاح الجزائري" وهو يمدح "الشخوص المقدّسة" في عالم قصصي شعبي، ويمدح "الأمكنة المقدّسة" التي جعلت أفعال "الشخوص المقدّسة" مقدسة بذاتها، في فضاء رحب تهفو إليه النفوس وتطمئن مشتاقة ظمأى، كما يمدح "الحادثة/ الزمن" الذي صار هو الآخر مقدّسا بفضل ذلك "الفعل المقدّس" الذي حوي شحنات إيمانية قوية حولت مجرى التاريخ إلى حركة واعية "مقدّسة".

ومما تقدم تتطلع العيون والأفئدة المتأزمة إلى كل ما هو "مقدّس" صارخة مستصرخة بأصوات بحة، مستغيثة عارضة جرحها الغامق الغميق، عندما يتوقف كل شيء عن الحركة والصراخ سوى حركة القلب واللسان في اللحظات البائسة اليائسة

الدكتور: بوخالفه عزّي

تندفع أصوات من حناجر جريجة باهتة في فضاء كوني رحب تنشد رحمة الخالق الواسعة متلهفة إلى ساعة الاستجابة.. ساعة الإغاثة الإلهية المرجوة وقت العسرة، وربما رحلت العيون عبر الأزمنة والأمكنة باحثة في تجاويف الذاكرة الجماعية عن بطل يكشف الغمة.. بطل ذي مواصفات آنية عصرية، من بين الأبطال الذين حنطهم التاريخ، وحنطهم الأزمنة الملتكنة، وكتب التاريخ ذات المذاهب والأهواء والملل والنحل والفرق، لتحرر بطلها "المقدس" المنتظر من أسر ذلك وتهبه الحياة لتبعثه بعثا جديدا يوافق معطيات المرحلة و"زمن مقدس" متقدّم و"مكان مقدس" في "زمن متأزم" متأخّر، وفي مكان بعيد مدّس ينوء بالظلم والتعسف كي يعيد هذا البطل ترتيب حيثيات الزمن المتأخّر، ويعيد تكرار الفعل المقدس القديم، وينفث فيه لبعثه من جديد، ومن تطهير "الزمن المدّس" المتأخّر بـ"الزمن المقدس"! المتقدم، ومن البحث عن العناصر الفاعلة في "الزمن المقدس" لبعثها في "الزمن المدّس"! لكن كيف يتحقق تغالب هذه الأزمنة لدى المتذوق والانتصار لـ"الزمن المقدس"؟ على أنه لا توجد "أزمنة مقدّسة" إلا نسبيا، فلو لم يكن "المدّس" لما جاء "المقدس" المحبوب ليمحو أثره أو يقلل من وطأته. وكيف يحقق "المدّاح" ذلك. بالمعنى المتقدم. بوعي أو بدون وعي؟.

لإيضاح ذلك نستعير مفهوم "الإسقاط" مؤقتا. فلو أننا قلنا. مثلا. أن "المدّاح" يتحدث عن "غزوات"/ "مغازي" الإمام علي بن أبي طالب (ض): في سوق أو ساحة عمومية جزائرية في بداية خمسينيات القرن الماضي، نلاحظ أن هناك قرونا متطاولة بين الزمنين، بيد أن التواصل. عبر الأزمنة. ظل مستمرا ولو في أشكال إسلامية "مشوهة" بفعل التقادم، فهو تواصل صدئت حلقاته. فـ"المدّاح" ومعه الحضور في حالة تفاعل عاطفي قوي، مخيرون بين أمرين:

1. الانتقال من "الزمن المدّس" بسبب التأزم، وواقع الجزائر المستعمرة خلال الفترة السابقة/ بداية الخمسينيات مثلا، إلى "الزمن المقدس" وواقع الفتوحات الإسلامية ونصرة الدين: يرحلون جميعا بعيونهم المعمشة لاقتحام شرنقة "الزمن المقدس" لمدة زمنية محدودة هي المدة التي تقتضيها رواية "المدّاح" ثم يعودون محبطين إلى واقعهم المتأزم، لكن بشحنة قوية. رغم الإحباط. تمج "المدّس" وترفضه وتطمح إلى إمكانية إحلال "المقدس" محله، باحثين عن مواصفات بطل يأخذ بعض صفات أبطال "الأزمنة المقدّسة" لإحداث التغيير المطلوب!.

2. استعارة أو استدعاء. في طقوس مهيبية، وفي حالة وجدانية صوفية. "الشخص" و"الأزمنة" و"الأمكنة" و"الأفعال" المقدّسة المطمئنة، إلى واقعها المتأزم، خلال لحظات

الْعَوْنِيَّة - من خلال الانتاج الملحمي التراثي الجزائري-

الرواية أو الإنشاد لإحداث أو القيام بعملية "الإسقاط" إسقاط زمن على آخر، وإسقاط واقع على آخر، وإسقاط شخوص متقدمة على أخرى متأخرة، و...و... في انتظار الفعل المضاهي للأفعال السابقة...

أدوات الاستدعاء:

. الشخوص المقدّسة: النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، الإمام علي، جعفر، فاطمة الزهراء، إبراهيم الخليل، قراء القرآن، الساجدون الراكعون، الحجاج الطائفون بالبيت، الواقفون بعرفة، بالصائمين، بقبيلة قريش، قبيلة النبي (ص) بمن حضر صلح الحديبية من الصحابة، بالعشرة المبشرين بالجنة، بالخلفاء الراشدين، بالتابعين وبعقبه بن نافع الفاتح العربي دفين الجزائر، بالصحابة كلهم رضي الله عنهم أجمعين، بطلبة القرآن، بأولياء الله الصالحين، بالمجاهدين في سبيل الله من بعدهم، بالتيجاني وبوقبرين وكل ولي، وبكل رجال البر ورجال البحر...وهي معظم الأسماء الواردة في نصوص "الْعَوْنِيَّة"

. الأزمنة المتقدمة: زمن الفتوحات الإسلامية، والمغازي والانتصارات، و...أي الأزمنة الحقيقية التي عاشتها الشخوص المقدسة السابقة...

. الأمكنة المتقدمة: شبه الجزيرة العربية وامتدادها الطبيعي الجغرافي، ثم امتداد البعد الروحي جغرافيا. كساحة لانبثاق الدعوة، وساحات للانتصارات، وبالكعبة والمدينة المنورة، والحديبية...

. الحروب السابقة: مواجهات دامية لتحقيق قيم العدل والمساواة، مواجهات عسكرية ذات أبعاد روحية...

الخلفية الفكرية . العقدية الكامنة وراء المواجهة: صراع بين الإيمان والشرك، بين التوحيد والكفر، صراع بين قوى الخير وقوى الشر، بين الحق والباطل...

هذا الزمن مقدّس، لأن النصر كان لقوى الخير، وكان اعتناقها تلك القيم وراء نصرها، بغض النظر عن قيمة تلك القيم التي يبتها "المدّاح" وما ينسبه للإمام علي رضي الله عنه، وبغض النظر عن قدرة استيعاب المتذوقين لها، فهي في النهاية مادة تاريخية مشوهة ولكنها لا تخلو من بعد تربوي في مجتمع أمي !.

يستعيد المستمع . في زمن الرواية/ القص وأثره الممتد عاطفيا وزمنيا . واقعه ويفكك عناصره، ويحدث تبادل الشخوص والأزمنة والأدوار على النحو التالي:

. الشخوص المقدّسة السابقة: يحل محل الإمام علي والصحابة والمجاهدين...مجاهدو المقاومة الشعبية الجزائرية في مراحلها المختلفة بما في ذلك الثورة التحريرية...

الدكتور: بوخالفه عزّي

. الأزمنة المتأخرة: زمن المقاومة الشعبية، والكفاح المسلح، المشبع بالأزمنة المقدسة المتقدمة لتحقيق الانتصارات، و...و...

. الأمكنة المتأخرة: بلاد الجزائر كامتداد حضاري روحي للفتوحات الإسلامية، في شبه الجزيرة العربية وخارجها، وامتداد لساحة الانبثاق والدعوة، وساحات للانتصارات... الحروب المتأخرة: مواجهات دامية لتحقيق قيم العدل ودحر العدو الغاصب، مشحونة بقوة روحية إيمانية لا تنزعزع، يكون أعداء الشخص المقدسة السابقة هم نفس أعداء الجزائريين بدءاً من احتلال الجزائر إلى يوم الاستقلال، ولذلك كان لهذه المواجهات بعد روحي واضح تتقاطع فيه الشخص المقدسة بالشخص المتأخرة...

. الخلفية الفكرية . العقيدة الكامنة وراء المواجهة: صراع بين الإيمان والشرك، بين التوحيد والكفر، صراع بين قوى الخير، وقوى الشر، وإن اختلفت ساحاته وميادينه وأهدافه...

غير أن اتحاد الأزمنة والأمكنة والشخص والمعارك والخلفية الفكرية العقيدة لا تتحقق إلا بالكلمة/ الاستغاثة المشحونة بطاقة إيمانية لا متناهية يصدر عنها الفعل المنتظر كنتيجة لـ"الغوثية" أي الدعاء المخصوص: الكتب المنزلة، والقرآن وبعض سور القرآن، والكعبة والمدينة المنورة...

وهذا يحصل التطابق النسبي بين مختلف العناصر السابقة على الرغم مما بينها من تباعد زمني طويل. وعليه فقد اتحدت الأفعال والمواقف عقدياً بين الزمنين، وأصبح الفعل واحداً والعقيدة المحركة واحدة والهدف واحد. وبالتبادل: الصحابة ضد الكفار العرب المشركين واليهود وغيرهم، الجزائريون ضد الفرنسيين الكفار الظالمين. وهذا اتحدت الأفعال في موقف واحد رغم تباعد الأزمنة: من حاربوا النبي (ص) وواجهوا الدعوة وعذبوا المسلمين في الأزمنة القديمة لهم امتدادهم في الزمن: هم الفرنسيون الذين يتجدون في التصور السابق مع اليهود، جمعهم صفة الكفر والظلم، وأن الجزائريين المظلومين، هم امتداد لنشر الخير وتطهير الأرض من الكفر/ الفرنسيين، ومن ثم اتحدت أفعال الجزائريين في "الزمن المدنس" مع أفعال الصحابة في "الزمن المقدس" بغض النظر عن قيمة الفعل ودرجته في الزمنين. وعملوا إلى أن تطهر الزمن وصار شبيهاً أو قريب الشبه من سابقه. وتكون الشحنة هي: صراع الكفر والإيمان والنصر للأخير. وهذا التصور يكون الرحيل إلى الأزمنة والأمكنة أو استعارتها.

لكن "المقدس" ليس شخوصاً وأزمنة وأمكنة في ثقافة الجزائريين الشعبية، يرحل إليها أو يستدعيها كلما أملت به ملة، لأن "المقدس" يمتد إلى شخوص أقل

الْغَوْثِيَّة - من خلال الانتاج الملحي التراثي الجزائري-

"قدسية" إذا جاز لنا هذا الاستعمال، كما يمتد إلى نصوص متفاوتة "القدسية" أيضا يلجأ إليها "المضطّر" لجلء الغمة، ويلجأ إليها المستغيث في الملمات كالاستغاثة بالأولياء والطلبة والزوايا أو من يرتل القرآن فيها أو ما يتلى فيها من قرآن لإحداث الإنفراج النفسي لدى المستغيث، لأن للكلمة دورا في تحريك القوى الكامنة/ الخامدة، ولأن الكلمة فعل وروح متجسد كما تقدم، إذا كانت كان الفعل بعدها مباشرة. من هنا جاءت "الْغَوْثِيَّة" أو "الغوثيات" أي الاستغاثة وطلب "الغوث" من خلال الكلمة لتغيير الواقع، لأن الواقع المؤلم الذي يفر منه المستغيث، واقع لا يرضي الله، حيث يعترف ويقر المستغيث بالإقرار بالذنوب والمعاصي: ذنوبه أو ذنوب غيره التي كانت سببا في جلب سخط الرحمن، فـ"الْغَوْثِيَّة" نسبة إلى الغوث أعلى درجات الصوفية و"هو القطب حينما يلجأ إليه ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا"⁴⁷. وقد يسمى القطب "غوثا باعتبار التجاء الملهوف إليه"⁴⁸. و"القطب لا يكون في الزمان إلا واحدا وهو الغوث وهو سيد أهل زمنه وإمامهم..."⁴⁹. ليكون واسطة بينهم وبين الله للاستجابة، لأنهم . وهم الذين دنسهم ذنوبهم . لا يستجاب لهم على حالة المعصية التي أقروا بها، وهم في بؤرة الفساد فيلجأون إلى "الغوث" / المقدس.

الهوامش:

1. عبد المجيد مزيان ((مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية)) مجلة الأصالة. الجزائر، العدد الثامن ، السنة الثانية ماي . جوان 1972م. ص 162.
2. انظر، المهدي البوعبدلي. "تقديم وتعليق" كتاب: محمد بن يوسف الزّيّاني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. الجزائر 1978 ش.و.ن.ت. ص 10.
3. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. ترجمة عبد الرحمن بدوي. دار الغرب الإسلامي بيروت 1981 ص 381.
4. قرآن كريم، الشورى، الآية: 28.
5. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم. مرجع سابق ص 391.
6. جلول يلس و أمقران الحفناوي. المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. ش.و.ن.ت. الجزائر، 1975. قصيدة للشاعر ولد عمر ص 32.
7. نفس المرجع السابق، قصيدة لشاعر مجهول. ص 43.
8. لم أتدخل لإعادة كتابة القصائد الشعبية، ونقلتها حرفيا وكما هي حفاظا على أمانة النقل، وإن كان لا بد من التدخل السريع لإعادة كتابتها الكتابة الصحيحة كي لا يضيع معناها وتسهل قراءتها.
9. Desparmet (J). ((L'entrée des Français à Alger par le Cheikh Abdelkader)). Revue Africaine. Volume 71/ 1930 Pp 229-236.
10. Daumas (Gle). Moeurs et coutumes de l'Algérie. Tell- Kabylie- Sahara. Paris 1853. p 129.
11. عبد الرحمن بن خلدون 863/1.
12. المهدي البوعبدلي ((تقديم)) كتاب أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. قسنطينة 1973. منشورات وزارة الشؤون الدينية . مطبعة البعث قسنطينة. ص 51.
13. المهدي البوعبدلي. ((تقديم وتعليق)) محمد بن يوسف الزّيّاني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. الجزائر 1978 ش.و.ن.ت. ص 10.
14. نفس المرجع السابق. ص 10.
15. Desparmet (J). ((L'entrée des Français...)). Revue Africaine. Op. Cit. Volume 71/ 1930 Pp 229-236.

الْغَوْثِيَّة - من خلال الانتاج الملحي التراثي الجزائري-

Ibid, Pp 229-236. 16.

17. محمد بن يوسف الزيّاني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. مرجع سابق. ص 4241: "...فسلمها رضي الله عنه للنصارى لأنه سلطان مصرها، ومتولي أمرها وكان من الذين لو أقسموا على الله لبر الله قسمهم ونص دعائه"روحي يا وهران الفاسقة، يا كثيرة الجور والبغي والطارقة، يا ذات الأهل الباغية السارقة، أني بعثك ببيعة موافقة لنصارى مالقة وجالقة، إلى يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت طالقة. فلما قال الشيخ ذلك قال له بعض تلامذته الحاضرين لدعوته: يا سيدي والفرج لاحقة، فقال الشيخ: والفرج لاحقة(...) دخلوها (النصارى) بعد وفاته باثنين وسبعين عاما بعد وفاته(...) مع ما انضم لتلك الدعوة من دعوة الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن يوسف الراشدي..."

18. Auguste Mouliéras. Le Maroc Inconnu, étude Géographique et sociologique. Deuxième Partie Exploration des Djebala. Paris 1899 Pp N° 702 Cd 214.

19. عبد الرحمن بن خلدون 365/1.

20. Desparmet (J). ((L'entrée des Français...)). Revue Africaine. Op. Cit. Volume 71/ 1930 Pp 229-236.

21. Ibid, Pp 229-236.

22. Ibid, Pp 229-236.

23. Ibid, Pp 229-236.

24. Ibid, Pp 229-236.

25. Ibid, Pp 229-236.

26. قصيدة للشاعر عبد السلام بن أحمد البقال. في جلول يلس و أمقران الحفناوي. المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. مرجع سابق ص 88.

27. نفس القصيدة، نفس المرجع. ص 89/88.

28. نفس القصيدة، نفس المرجع. ص 91/89/88.

29. العربي دحو. الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس. الجزائر 1985 الجزء الأول ص 40.

30. كان ابن القندوز قادري الطريقة، والشيخ المعزوز كناية للشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد.(البوعبدلي)

الدكتور: بوخالفة عزّي

31. المهدي البوعبدلي (تقديم) كتاب أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. مرجع سابق، ص 51.
32. اسم القرية التي كان فيها المعهد أي بين يلل والمطمر، ولا زال أثر المعهد كما لازال الموضوع الذي نفذ فيه حكم الإعدام على ابن القندوز بين وادي رهيو ومازونة (البوعبدلي).
33. المهدي البوعبدلي (تقديم) كتاب أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي. الثغر الجماني في... مرجع سابق. ص 52. 53.
34. انظر، المهدي البوعبدلي. "تقديم وتعليق" كتاب: محمد بن يوسف الزيّاني، دليل الحيران وأنيس السهران... مرجع سابق، الهامس، ص 10.
35. قصيدة للشاعر عدة بن بشير، في: جلول يلس و أمقران الحفناوي. المقاومة الجزائرية... مرجع سابق، ص 44. 45.
36. نفس القصيدة. ص 52. 54.
37. قصيدة للشاعر علي بن الشرقي في جلول يلس و أمقران الحفناوي. المقاومة... ص 59. 60.
38. قصيدة للشاعر الشيخ الشلالي، في نفس المرجع السابق، ص 76.
39. سونك. الديوان المغرب في أفعال عرب إفريقية والمغرب. موفم للنشر الجزائر 1994. ص 15. 16.
40. L. Charles Féraud. Le Sahara de Constantine, Notes et Souvenirs. Alger 1887 Pp 438-439.
41. قصيدة للشاعر قفاف محمد بن الدولة، في جلول يلس و أمقران الحفناوي. المقاومة... ص 81.
42. نفس القصيدة. ص 82.
43. قصيدة للشاعر عبد القادر بن أحمد المجاجي. في جلول يلس و أمقران الحفناوي. المقاومة... مرجع سابق، ص 102.
44. قصيدة للشاعر محمد بن إسماعيل الجزائري. نفس المرجع السابق، ص 105. 106.
45. قصيدة للشاعر محمد بن بلخير، نفس المرجع السابق، ص 13.
46. J. Joly ((Chanson du répertoire Algériens)) Revue Africaine Volume 53 /1909. Pp 61-62.

الغوثية - من خلال الانتاج المحلي التراثي الجزائري-

47. علي بن محمد بن علي الجرجاني. التعريفات بيروت 1405. تحقيق إبراهيم الأبياري. ص 209.
48. نفس المرجع السابق، ص 277.
49. محمد عبد الرؤوف المناني. التوقيف على مهمات التعاريف. بيروت . دمشق 1410 تحقيق محمد رضوان الداية ص 83.